حيوانات وردت في آيات

(٩)

حُوتُ يُونُس

أحمد سويلم

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

حوت يونس. -ط٢. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٤ ص ؛ ١٧×٢٢سم

ردمك: X-٩٣٥-٤٠-٩٩٦٠

١-قصص القرآن. ٢- قصص الأطفال. أ - العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٨٧١

ردمك: X-٩٣٥-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/٨٧١

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

الرياض - العليا - طرق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

[الصافات: ١٣٩ - ١٤٢]

الحُوتُ من كبَار الأسمَاك في البَحْر.

وقَد جاءَ لفظُ الحُوت مُفرداً وجَمعًا في خمسَة مواضعَ من القُرآن الكَريم، تشيرُ إلى قصتَينِ من قَصَص الأنبياءِ، هما قصةُ موسَى والخَضِر، ثُم قصةُ يونسَ.

قالَ تعالَى مُشيراً إلى قصَّة موسَى والخَضر:

﴿... فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ...﴾.

[الكهف: ٦٣]

وقالَ تعالىَ مشيراً إلى قصَّة يونُسَ:

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

[القلم: ٤٨]

ويُضرَبُ بالحُوت المَثَلُ في الابتلاعِ.

وأشهَرُ الحيتَان ذلكَ الحوتُ الذي ابتلعَ يونُسَ عليه السلامُ، ولَم يأكُلْه امتثالاً لأمْر اللَّه عزَّ وجلَّ.

أمَّا يونسُ فهوَ نبيُّ اللَّه، اختارَه من قَومِه، وكانَ أزهدَهم، وكانَ عملُه

الصَّالحُ يَصعدُ إلى السَّماءِ لَيلَ نهارَ، وسمَّاه القُرآنُ ذا النُّونِ، أيْ صاحبَ الحُوتِ.

وقَد ولدَتْه أمُّه بَعدَ عُمْر طَويل من الانتظَار، فلمَّا شَبَّ ونضجَ أرسَلَه اللهُ تعالَى إلى أهلِ نِينَوَى دَاعيًا إلى الإيمَانِ.

وكانَتْ نينوَى يحكمُها أحدُ مُلوك الرُّوم، وكانَ أهلُها يَعبدُونَ الأصنامَ، بلْ كانَ هذَا المَلكُ يقتلُ مَن يخرجُ من قَومِه عَلى عبادَة الأصنَام.

ويَمتثلُ يونسُ لأمْر اللَّه تَعالَى.

رَكبَ ناقتَه وحملَ علَيها معَه زوجتَه وأولادَه، وكانَ عُمرُه آنَذاكَ أربعينَ عامًا.

ويقتربُ يونسُ من مَشَارف نينَوَى، ويَنزلُ في غَار جَبَليٍّ بجوَار عَين مَاء، ثم قالَ لزوجَته: لقد أُمرتُ أن أذهبَ عَنكُم الآنَ، فانتظِرُوني أربعينَ يومًا، فإنْ غِبتُ أكثرَ من ذلكَ فاعلَمُوا أنِّي قُتلتُ.

ويتركُ يونسُ أهلَه في الغَار، ويلبَسُ جُبَّتَه، ويأخذُ عصَاه في يَدِه، ويَسعَى إلى نينَوَى.

وهاهوَ يصعَدُ جبلاً عاليًا يُطلُّ على نينَوَى، ويختارُ مكانًا يمكنُ أن يصلَ صوتُه منه إلى النَّاس، ثم صاحَ: يا أهلَ نينَوَى، اعلَمُوا أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ يونُسَ رسولُ الله إليكُم.

وأخذَ يونُسُ يُكرِّرُ النِّداءَ مرةً ومرةً، فأقبلَ القومُ من كُلِّ مَكَان وصَعدُوا إليه، واتَّهَمُوه بالجنُون، وضَربُوه ضَربًا مُؤلمًا، حتَّى غُشِيَ علَيه، فتركُوه في مكَانه فَوقَ الجَبلِ، وأسرَعُوا إلى مَلِكهم، وقالُوا لَه:

يا مَولانا، صعدَ علَى جَبلنَا رجلٌ فقيرٌ، حَافي القدمَين، يَبدُو علَيه الجُنونُ، يقالُ لَه يونُسُ، يَزعُمُ أنَّه جَاءَ يَدعُو لإلَهٍ واحدٍ يُعبَدُ في السَّماء!

غَضِبَ المَلكُ غضبًا شديدًا، وأمَرَ بإحضَارِه بَينَ يدَيْه.

أسرعَ القَومُ فحملُوه إلى المَلكِ، فقالَ لَه: ما هذَا القولُ الذي تَهذِي به يَا رجُلُ.

قالَ يونُسُ: لَستُ أهذِي بشَيء، لكنَّني أَدعُو إلى الحَقِّ، أدعُو إلى ربِّي وربِّكم.

قاطَعَه الملِكُ: أيُوجدُ إلَهٌ غَيرُ أصنَامنا؟

قالَ يونسُ: إنَّه اللهُ الواحدُ القهَّارُ.

قاطَعَه المَلكُ: وماذَا تقولُ في أصْنَامنا التي نَعبدُها، وعبدَهَا قبلَنا آباؤُنا وأجدادُنا، وما أظنُّ شيئًا تَغيَّرَ في هَذِهِ الأرْضِ حتَّى نتركَ دينَنا إلى ما تَزعُمُه؟!

قالَ يونُسُ: يا قومُ، أفيقُوا وكَفَى عناداً، وحَكِّموا عُقولَكم، وتَدبَّروا قليلاً ما أدعُوكُم إليه. ماذَا يُفيدُكم عبادةُ أحجَار لا تنفَعُ ولا تَضرُّ، ولا تَملِكُ أن تَدفعَ عَنكم شرّاً، ولا هيَ قادرةٌ على خَلْق شَيء أو شِفَاء مَريضٍ؟!

قالَ المَلكُ في غَضَب: وهَلْ إلَهُكَ يفعَلُ هَذا؟

قالَ يُونسُ: نَعَمْ. هُو إلَهُ العَالَم، إلهُ الأرْضِ والسَّماء والإنْس والجنِّ والحيَوان والطَّيْر، وهُو يأمرُكم بمَا فيه صَلاحُ دُنيَاكُم، وبالمعْرُوف الذي يُضيءُ لكُم حياتَكم، ويَنهَاكُم عَن المنكَرِ، ويحبِّبُ إليكُمُ العَدلَ والسَّلامَ.

صاحَ المَلكُ في وَجْهِ يونُسَ:

- لَن تَجدَ فينا مَنْ يَستجيبُ لِمَا تَقولُ.

قالَ: إن لَمْ تستجيبُوا أنذَرْتُكم بعذَابٍ وَاقعٍ، وبَلاءٍ شَاملٍ، وهَلاكٍ قَريبٍ.

صَرخَ الملكُ في صلَفٍ وعنَادٍ:

- أتُخيفُنا بوَعيدكَ؟! لَسنَا خَائفينَ منكَ، ولا من عَذابِك المنتَظَرِ. إنَّكَ رجلٌ فقيرٌ، وما نَحسبُكَ إلا قَد مَسَّكَ شَيءٌ من الجُنونِ.

ثمَّ أمرَ المَلكُ بسَجن يونُسَ في مَكان مُظلم ضيِّق. فأقامَ يونُسُ في السِّجْنِ أربَعينَ يومًا، ثُمَّ تذكَّرَه المَلِكُ في اليَوْم الأخيرِ، فقالَ لوزيرِه:

- امْضِ إلى السِّجْن وائْتني بالرَّجُل حتَّى أقتُلَه.

فدخلَ الوَزيرُ علَى يونُسَ، فوجَدَ السِّجنَ الضَّيِّقَ قَد تحوَّلَ بقُدرَة اللَّه تعَالى إلى مَكان متَّسع مُضيء، فدهشَ الوزيرُ، وسَألَ يونُسَ: مَن فَعلَ هَذَا؟!

قالَ يونسُ: إنَّه اللَّهُ الذي أعبُدُه.

فأسلَمَ الوَزيرُ وانطلَقَ إلى المَلك يُخْبره بمَا شَاهدَه، فأمَرَ المَلكُ بإحضَاره، وقالَ لَه غاضبًا: اخرُجْ أيُّها الرَّجلُ من أرضِنا؛ فقَد أفسدْتَ رَعيَّتي بسحْرِكَ.

عادَ يونسُ إلى أهلِه في الغَارِ.

لكنَّ اللهَ أمَرَه أن يذهبَ مرَّةً أخرَى إلى أهْلِ نِينوَى ويَدعوهُم إلَى الإيمَانِ.

قالَ: يا ربِّ، لقدْ دَعَوتُهم فلَمْ يَستجيبُوا لي.

فأوحَى اللهُ إليه: ما عليكَ إلا أن تفعلَ ما آمُـرُكَ به، فإذَا عَاندُوكَ فبشِّرْهُم بعَذَابٍ شَديدٍ من عِندي.

سألَ يُونسُ ربَّه: ما عَلاماتُ هَذا العَذَابِ؟

فأوحَى اللهُ إلَيه أنَّ وُجـوهَ القَوم وأبدانَهم تصفَرُّ في اليَـوم الأوَّل، وتَحْمَرُّ في اليَـومِ الرَّابعِ، وتسْـوَدُّ في اليَـوم السَّـابـعِ، ويَنزلُ بهمُ العَـذابُ في اليَـوْم العَاشرِ.

صَعـدَ يونُسُ جَبلَ نينوَى، ودعَـا القَومَ مرَّةً أخـرَى، مثلَما فـعلَ من قَبلُ، فصَعدُوا يقذفُونَه بالحجَارة، ويسبُّونَه سبّاً شَديداً.

صاحَ فيهم يُونُسُ مُتوعِّدًا:

- إذا ظَلَلتُم عَلى عنادكُم فسوفَ يُصيبُكم عَذابٌ شَديدٌ لا طاقةَ لَكُم به.

قالُوا: قُلتَ ذلكَ من قَبلُ ولَم يُصبْنَا شَيءٌ.

قالَ: إنَّ لَه عَلاماتٍ سَوفَ تَرَوْنَها بأنفُسِكم.

قالُوا: ومَا هيَ يا رجلُ؟!

قـالَ: إذا كانَ اليـومُ الأولُ سوفَ تَصْـفَـرُّ وجوهُكم وأبدانُكم، وإذا كـانَ اليومُ الرابعُ سـوفَ تحمَرُّ وجـوهُكم وأبدانُكم، وإذا كانَ اليومُ السـابعُ سوفَ تسودُّ وجوهُكم وأبدانُكم، وإذا جاءَ اليومُ العَاشرُ أنزلَ اللهُ بكُم العَذابَ.

أخذَ القَومُ يَضحكُونَ ويسخَرُونَ، ولَم يُؤمنْ به أحدٌ.

وأوحَى اللهُ إلى يونُسَ أن دَعْهُم في بُهتانِهم، واخرُجْ من أرْضِهم. فخرجَ يونُسُ وتَركَهم، ولحقَ بأهلِه.

وبدَأت الأيامُ تتوالَـى.. جاءَ اليَومُ الأوَّلُ فـاصفَرَّتْ وجُـوهُهم وأبدانُهم. وذهَبُوا إلى الملكِ.

قالَ لَهم المَلكُ: امضُوا إلى أصنامِكُم واسألُوها كَشفَ مَا حلَّ بنا.

فـأسرَعَ القَـومُ إلى الأصنَام يَسـجدونَ، ويَذبـحونَ الذَّبائحَ، ويَدعُـونَ أنْ تَكشفَ عنهُم ما نَزلَ بـهم، ومَا كادُوا يَخرُجُـونَ من مَعابِدهم حتَّى نَشرَ اللهُ علَيهم سَحابةً مُظلمةً.

قالَ لهُمُ المَلكُ: إنَّهَا سَحابةُ خَيرٍ مملوءةٌ بالأمطَارِ، لا تَخْشَوْا شيئًا.

وظلُّوا في حَيْرَتِهم حتَّى جاءَ اليَومُ الرَّابعُ.

وفي هَذا اليَـوم احـمَـرَّتْ وجـوهُهـم وأبدانُهم، فـأسـرَعُـوا إلى المَلك وصاحُوا: إنْ كُنتَ حَقّاً مَلكَنَا وحامـيَنا فادفَعْ عَنَّا هذَا البَلاءَ؛ فمَا نَظنُّ الرجلَ إلا صَادقًا. وحاوَلَ المَلكُ أنْ يُخفِّفَ عَنهُم.

ثمَّ جَـاءَ اليَـومُ السَّـابعُ، فـاسـوَدَّتْ وُجـوهُهم وأبدَانُهم، فـازدادُوا ذُعْـرًا وخَوفًا، فدخَلُوا على المَلكِ، فوجَدُوه أكثرَ ذُعْرًا وخَوفًا، وحَولَه الحكماءُ.

قالَ الحكماءُ: لا مَفَرَّ من العذابِ بعَد ثلاثَةِ أيَّامٍ.

قالَ المَلكُ: وماذَا نَفعلُ أيُّها الحُكَماءُ؟

قالُوا: نُحطِّمُ أصنامَنَا، ونَرضَى بيُونُسَ نَبيّا.

لمْ يكُن أمامَهم خَلاصٌ آخرُ.

أسرعَ القـومُ يُحطِّمونَ أصنَامَهم، ثُم انـطلَقُوا يَبحَـثونَ عن يُونسَ في كُلِّ مكَان فلَمْ يَجدُوه، فأخَذُوا يَسجدُونَ ويَستغفرونَ، ويَندمونَ علَى ما فَعَلُوا معَ يونُسَ، حتَّى صَفَتْ قُلوبُهم، فكشَفَ اللهُ عَنهُمُ العَذابَ ورَحِمَهم.

﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. [يونس: ٩٨]

وكانَ يونُسُ حينَما أمرَه اللَّهُ بالخرُوج والبُعد عَن نينَوَى يجلسُ معَ أهْله في الغَارِ، مُنتظرًا أنْ تَصلَه أخبارُ العَذَابِ الإلَهيِّ الذي سَوفَ يحِلُّ بالقَوْمِ؛ فقَدْ أحسَّ أنَّ القَومَ أهَانُوه وعانَدُوه.

ويتمثَّلُ لَه الشَّيطانُ في صُورةِ راعٍ فَقيرٍ، ويَقتَرِبُ من يُونُسَ، ويَسألُهُ يُونسُ: مِن أيِّ قَومٍ أنتَ؟!

يَردُّ الشَّيطانُ: مِن قَومِ نِينَوَى.

قالَ: وكيفَ تَركْتَهم؟

قالَ الشَّيطانُ: لَم يَنزلْ بهم العَذابُ، وعَزَمُوا على قَتْلِ هذَا الرجلِ الذي اسمُه يُونسُ، لأنَّه كَذبَ علَيهم.

فلمَّا سَمعَ يونسُ ذلكَ غضبَ غَضَبًا شديدًا، وتَركَ أهلَه، وانطلقَ إلى البَحْر لعلَّهُ يَجدُ سَفينةً تَحملُه إلى بَلَدٍ بَعيدٍ.

ظلَّ يُونُسُ منتَظراً في قَلَقٍ على الشَّاطئِ حتَّى جَاءَتْ سَفينةٌ فركِبَها، وسارَتْ في المَاء بعضَ الوَقْت.

فلمَّا توسَّطَت السفينةُ البَحرَ هاجَ بهمُ البحرُ وماجَ، واضطربتْ سفينتُهم

وتعطلتْ وتوقفت عن الإبحَارِ.

قالَ الرُّكَّابُ لقَائدِها: ما بَالُ سفينَتِكَ توقفْت وسطَ هَذهِ الأمواجِ العاليةِ؟

قالَ: لا أدْري، لقَدْ تعطَّلَتْ، وسأبحثُ الآنَ عن سَببِ العُطْلِ.

جلسَ يونسُ إلى نَفسِـه، فأدركَ أنَّه ارتكبَ ذَنبًا في حَـقِّ اللَّهِ، فانطَلَقَ إلى ركَّابِ السَّفينةِ وقَالَ:

- أنْا أعرِفُ سَببَ توقُّفِ السَّفينةِ وعُطلِها.

قالُوا: ماذَا؟!

قالَ: لا بُدَّ أنَّ علَى ظَهْـرِ السَّفينةِ عَبـدًا عَصَى اللهَ، ولَنْ تَسيـرَ مَرَّةً أخرَى حتَّى تُلقُوا هذَا العَاصيَ في الماءِ.

وصدَّقَ النَّاسُ ما قَالَه يُونسُ وسَألُوه:

- أتَدْري مَن يا رَجلُ؟

قالَ: أنَا يَا قومُ، أنَا هَذَا العبدُ الذي عَصَى ربَّه.

قالَ أحـدُهم: قُلْ شـيئًـا آخرَ؛ فـأنَا أعرفُ مَن أنتَ، أنتَ يونُسُ بنُ مَـتَّى،

وأنتَ رجلٌ صالحٌ، يحبُّكَ الناسُ.

قالُوا جميعًا: لَن نُلقِيَكَ؛ واللهِ ما نَرجُو النَّجاةَ إلا بكَ.

أخذَ يونسُ يقنعُهم بمَا يقولُ وهُم لا يصدِّقونَ، ثمَّ قالَ لهُم: إذنْ نُجري قُرعةً علَى كلِّ النَّاس هُنا وأنَا معَهُم، فمَن وقَعتْ عَلَيه القرعةُ يُلقَى في الماء علَى الفَور.

لَم يكُنْ لَديهم مَفرٌّ من القَبُول، فأجْرَوُا القُرْعَة مرَّةً ومرَّةً، وفي كلِّ مَرَّةٍ تَقعُ علَى يُونسَ.

ولَم يُصدِّق الناسُ، لكنَّ يونسَ لم يدَعْ لهم وقتًا يفكِّرونَ فيه، بَلْ أسرعَ إلى حافَّةِ السَّفينةِ، ولفَّ جسَدَه في عِباءَة، وشَدَّ وسطَه.

أدركَ يونُسُ أنه حقّاً أذنبَ في حقِّ الله حينَما ذهبَ مغاضبًا.

فكيفَ يذهبُ إلى نينَوَى في المرَّة الثانية مُكرهًا نفسَه على ذلك، ويظنُّ أنَّهم لا يهتدونَ؟!

ونسيَ يونُسُ أنه ما علَى الرَّسُول إلا البلاغُ، وعلَى اللهِ الثَّوابُ أو العقابُ.

إنَّه إذنْ حُكمُ الله عليه، أن تأكلَه أسماكُ هَذا البَحرِ، وتُطوَى صفحتُه من الوُجودِ، وبهذا يُرضي ربَّه، ويكَفِّرُ عن ذَنبِه.

أسرعَ الآنَ إلى حافَّة السَّفينَة وهمَّ أن يُلقيَ بنَفْسه، فرأَى الأمْواجَ كأنَّها الجبالُ، فتحوَّل إلَى الجَانبِ الآخَرِ من السَّفينة فرأَى الأمواجَ أيضًا مثلَ الجبَالِ، لكنْ لا مفرَّ يَا يونسُ.

ألقَى بنَفسه إلى المَاء والنَّاسُ من حَوله قَد عجزُوا عن مَنعِه من ذلكَ، فإذَا بحُوتٍ ضَخْمٍ يَفتَحُ فَمَه ويَلتقطُهُ من قَلبِ المَوْجِ، ويَختَفِي.

ذكرَ رُكَّابُ السَّفينة ربَّهم، وتَرَحَّمُوا علَى يونسَ، وظنُّوا أنَّ الحُوتَ قد أكلَه.

تمَّ كلُّ هذَا في لحظَات خَاطفة، والناسُ في ذُهول، والأمواجُ حولَهم تضربُهم من هُنا وهُناك. وفجأةً هَدَأَ المَوجُ، ونظرَ الناسُ بَعضُهم إلى بَعْض، فأسرعَ قائدُ السَّفينة إلى دفَّتها، فإذَا بها تَنطلقُ في البَحر تُسابقُ السُّفُنَ الأخرَى.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾. [الصافات: ١٣٩ - ١٤٢]

وجدَ يونسُ نفسَه في باطنِ الحُوتِ.

وأوحَى اللهُ إلى الحُوت أنِّي لَم أرسلْ يونُسَ لَكَ رِزقًا ولا طَعامًا فَلا تَخدشْ لَه لحمًا، ولا تمزِّقْ لَه جِلدًا.

أطاعَ الحوتُ أمرَ خَالقه، وانطلقَ به إلى مكَان آمنٍ في جَوفِ البَحر، وظلَّ ينتظرُ ما يَقضِي به اللهُ تَعالَى.

أدركَ يونسُ أنَّه أخطَأَ حينَما كادَ يَيْأسُ من رَحمَة اللَّه، وأنَّهُ ظَلمَ نَفسَه حَيثُ لا يَيْأَسُ من رَحمَةَ اللَّه إلا الظَّالمونَ.

ظلَّ يَبكي ويَبكي، ويستغفرُ اللهَ، ويُسبِّحُ بحَمْده: لا إلهَ إلا أنتَ، سُبحانَكَ، إنِّي كُنتُ من الظالمينَ.

وكانَ تَسبيحُ يونسَ يزلزلُ الحوتَ في مكَانه. لكنَّه ظلَّ مكانَه امتثالاً لأمر الله.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾* [الأنبياء: ٨٧]

ويمرُّ وقتٌ طويلٌ قد يكونُ أيامًا قليلةً أو كثيرةً ـ اللهُ يَعْلَمُها ـ ويظلُّ يونسُ يهلِّلُ ويقدِّسُ ويقولُ:

- اللهمَّ يا إلهي ومَولايَ، أنت في السَّماء وفي الأرْض قدرَتُك وعجائبُك.

إلهي في الجبال أهبطتَني، وفي البلاد سيَّرْتَني، وفي الظُّلُمات الثَّلاث حبستَني، إلهي سَجَنْتَني في سِجْنٍ لَم يسكُنْه أحدٌ قَبلي.

اللَّهمَّ إنَّكَ عَاقَبتَني بعقَابَ لَم يُعاقَبْ به أحدٌ قَبْلي.. فاغفرْ لي.

أمَّا هَذه الظلماتُ الثَّلاثُ التي شَعرَ بهَا يونسُ وعبَّرَ عَنها فهيَ ظُلْمةُ بَطْنِ الحُوت التي احتَوتْه هكَذا مثلَ القَبْرِ أو السِّجْنِ الضيِّق.

وظُلْمةُ قَاعِ البَحْر وسطَ المَوْجِ والوُحوشِ المائيَّة والأخْطَارِ التي لا يُمكنُ أنْ يحيَا فيهَا الإنسانُ آمنًا.

---

* عن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» رواه أحمد (١٣٨٣) والترمذي (٣٤٢٧).

وظُلْمةُ اللَّيل التي تمرُّ عليه وحيداً في هذا الرُّكْنِ المُظْلمِ من الكَوْنِ.

ظَلَّ يُونسُ يسبِّحُ ويَبْكي لَعلَّ اللهَ يَرحَمُه.

فلمَّا سمعَتْه الملائكةُ يسبِّحُ ويبتَهلُ في بَطْنِ الحُوتِ بكَوْا لبُكائِه، وسَألُوا اللهَ تَعَالَى عَنه، قالَ:

يا مَلائِكَتي، ذاكَ عَبْدِي يونُسُ.

قالوا: ولماذا يَبكِي ويبتهلُ يا ربَّنا؟

قالَ: لقَد عصَانِي فحبَستُه في بَطنِ الحُوتِ في عُمقِ البَحْرِ.

قالُوا: يا ربَّنا، أهذَا هوَ العبدُ الصَّالحُ الذي كانَ يصعَدُ له في كُلِّ يَومٍ ولَيلةٍ عَملُه الصَّالحُ الكَثيرُ؟!

قالَ: نعمْ هو.

فبكَتْ علَيه الملائكةُ، وأخذَتْ تَطلبُ الشفاعةَ لَه.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]

فاستجابَ ربُّ القُدْرَةِ والعَظَمةِ، وأمَرَ الحوتَ أن يقذفَ يونُسَ علَى الشَّاطئِ.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]

وقال: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٩، ٥٠]

إذاً لم ينفعْ يونسَ ـ عليه السلام ـ من عمله إلا أنَّهُ كان ذاكراً لله شاكراً لأنعمه ممنْ يلهجُ لسانُهم بتسبيح الله ـ عزَّ وجل ـ فهلا كنا من الذاكرين وخاصةً في وقت الرخاءِ وأن نلتجأ إلى الله وحدهُ ـ سبحانه ـ في وقتِ الأزماتِ وأن نُخلصَ له الدعاءَ والتضرعَ حتى يكشفَ ما حلَّ بنا.

كانَ الحوتُ قَد شكرَ ربَّه أن اختارَه من بَين مَخلوقَات البَحْر لهَذه المهمَّة، وكانَ قد سعدَ بيونسَ، فحافظَ عليه في جَوْفه، ويَمتثلُ الحوتُ أمْرَ ربِّه، ويقذفُ يُونسَ على الشَّاطئِ عاريًا مَغْشيًا علَيه.

وأنبتَ اللهُ بجَانبه شجرةً ذات أَوراقٍ كَبيرةٍ كانَتْ ظِلاً ودِفئًا وسِتراً ليونسَ.

ويفيقُ يُونسُ ليَرَى نفسَه مُلقًى على الشَّاطئِ، وبجَانبِه هَذه الشَّجرةُ، فأخذَ يَستُرُ بهَا نفسَه، ويستظلُّ بهَا، ويأكلُ منهَا.

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

[الصافات: ١٤٥ - ١٤٨]

ثُم أسلمَ يونسُ نفسَه للنَّوم.

وحينَما أفاقَ من نَومِه أخذَ يسجدُ للهِ شُكرًا علَى رحمَتِه، ونَدِمَ على مَا فَعَلَه في حَقِّ اللهِ.

ثُم أوحَى اللهُ إلى يونسَ أن امْضِ إلى أهلِ نِينَوَى؛ فإنَّهم قَد آمَنُوا، ورَفَعتُ عنهُم العذابَ حينَما صفَتْ قلوبُهم.

وأمرَه اللهُ أن يُقيمَ فيهم، يعلِّمُهم أمورَ دينِهم، ويَأمرُهم بالمعْروفِ، وينَهاهُم عن المنكَرِ.

انطلَقَ يونسُ إلى أهلِ نينَوَى. ومَرَّ في الطَّريقِ بأحَدِ الرُّعاةِ، فطلبَ منه أن يشربَ لبنًا. فقالَ:

ليسَ عِنْدي شاةٌ تُدرُّ اللَّبنَ.

طلبَ منه يونسُ أنْ يأتيَ بأيَّـة شَاة، فـأتَى له بواحدَة، فـمسحَ عليـهَا بيَـده فأخذتْ تُدرُّ لبنًا كثيرًا، شربَ منه يونسُ، وشربَ الرَّاعي.

فاندهشَ الرَّاعي، لكنَّ المفاجأةَ ألجَمَتْه عَن الكَلام.

سألَهُ يونسُ: مِن أينَ أنتَ يا فتَى؟

قالَ: مِن قَومِ يونُسَ بنِ متَّى.

قالَ يُونسُ: أتَدْري شيئًا عن يُونسَ؟

قالَ: وَاللهِ لا يَدري أحدٌ أينَ هُو؛ لقدْ كانَ مِن خيَار النَّاس، وكانَ أصدقَ النَّاسِ.

أخبـرَنَا عن العذَاب وحدَّدَ لنا عَـلامَاته، فجـاءَنا كَمَا قـالَ، لكنَّنَا تُبْنَا إلى اللَّه، واستغفَرْنَا لذُنوبِنَا، فرَحِمَنَا ، وكشَفَ عنَّا العَذابَ.

قالَ يونُسُ: وأينَ يُونسُ الآنَ؟

قالَ: انطلَـقْنا بعدَ أن رحِمَنَا الـلهُ نبحثُ عَنهُ ونتـبعُه، لكنَّنا لَـمْ نَجِدْه ولَمْ نسمعْ عنه ذكْرًا.

قالَ يونسُ: أنَا يونسُ أيُّها الغلامُ.

وقعَ الفتَى مَغشِيّاً علَيه، غيرَ مصدِّقٍ.

ولَمَّا أفاقَ قالَ لَه يونسُ:

أتحبُّ يا فتَى أنْ تكونَ لكَ منزلةٌ كبيرةٌ عندَ قَومِكَ؟

قالَ الفتَى: كيفَ يَا نبيَّ اللَّه؟

قالَ: تَذهبُ إلـى مَلِكهم وتبشِّـرُه بأنَّ نبيَّهُـم يونُسَ بنَ مَتَّى لا يزالُ حـيّا، وأنهُ سوف يجيءُ إلَيهم.

وسابقَ الفتَى الريحَ إلى نينَوَى ، ودخلَ علَى المَلكِ لـيخبرَه بمَجيء يُونسَ، فلَم يُصدِّقْه، بَلْ قالَ:

إذَا كنتَ صادقًا فستظلُّ حتَّى يَجيءَ يونُسُ.

قالَ الفتىَ: واللَّه ما أنَا بكَاذبٍ، وسوفَ يجيءُ.

قالَ الملكُ: لكَ مِنِّي مَنزلةٌ كَبيرةٌ إنْ كنتَ صادقًا.

قالَ الفتَى: إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

ويمرُّ وقتٌ قصيرٌ، ويدخلُ مَن يُخبرُ الملكَ أنَّ يُونسَ فوقَ الجَبَلِ.

فيخرُجُ الملكُ علَى رأسِ قَومِه إلى الجبَلِ، ويَستقبلُونَ يونُسَ.

ويقُصُّ يُونسُ علَيْهم قصَّتَه معَ الحُوت، وكيفَ ابتلَعَه دُونَ أنْ يأكُلَه، وكيفَ ظلَّ في جَوْفِه أيامًا ولَيالي يُسبِّحُ بحَمْدِ اللَّهِ، حتَّى رَحِمَهُ اللهُ وأرسلَهُ مرةً أخرَى إلَيهم.

ويَظلُّ حُوتُ يُونُسَ يُمثِّلُ ذلكَ القَبرَ المُبارَكَ الذي سَعَى بصَاحِبِه ،ويدلُّ على قُدْرَةِ اللهِ في خَلْقِه!